الفصل السادس

سيرة الحجاج من مولده إلى مماته

obeikandl.com

obeikandl.com

سيرة الحجاج منذ أن ولد إلى أن ولي بلاد الحجاز

من هو الحجاج أبواه أصل قبيلته. موطنها. دخولها الإسلام. أشهر رجالها؟

الحجاج هو أبو محمد الحجاج بن يوسف بن الحكم بن أبي عقيل بن مسعود بن عامر بن معتب بن مالك بن كعب بن عمرو بن سعد بن عوف بن قسي (ثقيف) وإليه تنسب القبيلة.

فوالده يوسف بن الحكم بن أبي عقيل؛ وذكروا أنه كان معلم صبيان بالطائف. وهم إذا قالوا معلم صبيان فإنما يقصدون بهذا الوصف التحقير فيكفي أن يكون الرجل عندهم من معلمي الصبيان ليبان أنه ضعيف العقل مأفون الرأي ساقط الهمة؛ وقد ضربوا المثل بحماقة المعلم.

ويبالغ البعض فيقول إن ذلك في عرف العرب يوازي الحكم بالأشغال الشاقة.

والسبب في احتقار العرب للمعلم أنهم كانوا يحتقرون الصناعات، والتعليم من جملتها فلا يشتغل به إلا المستضعف الذي ليست له عصبيته؛ فأوحي إليهم هذا الفهم الخاطئ ما أوحي من هجاء.

أما الحجاج نفسه فلم تتفق المصادر على عمل كان يتولاه في صباه فقد ذكر البعض أنه كان معلم صبيان بالطائف. بينما قال آخرون إنه كان دباغاً وقال فريق ثالث إنه كان بائع زبيب.

أما قصة أنه كان دباغاً أو بائع زبيب فذلك مستبعد لأننا إذا سلمنا بأن والده كان معلماً فإن من العسير على أهل العلم أن ينشئوا أبناءهم في الصناعات، والتعليم ميسور أمامهم؛ وخاصة في تلك العصور التي كان فيها الأبناء يتوارثون وظائف الآباء.

ولعل الذين قالوا ذلك أرادوا أن ينالوا من الحجاج بعد أن أحرز من المجد ما أحرز فاصطنعوا عليه هذه القصص ونظموا في هجائه تلك الأشعار شأن الهجاة في كل عصر يبتكرون من خصب خيالهم ما يوحيه مزاجهم.

على أن اختلافهم فيما بينهم في إسناد هذه المهن المتباينة إليه يقوم دليلاً على الاختلاق.

وأما أنه كان معلماً وإن إياه كان من قبله معلماً فهذه قصة سلم بها الكثيرون؛ ولكنهم اختلفوا في تقدير العمل من حيث هو، فالتعليم وخاصة في صدر الإسلام لم يكن صناعة وإنما كان نقلاً لما سمع من الشارع وتعليماً لما جهل من الدين على جهة البلاغ؛ وكان القائمون بهذا الأمر أهل الأنساب والعصبية.

وكان والد الحجاج من سادات ثقيف وأشرافهم، ومكانهم من عصبية العرب ومناهضة قريش معروفة، وإنما صار التعليم صناعة واشتغل به المستضعفون حينما استقرت قواعد الإسلام واشتغل أهل العصبية بأمور الملك والسلطان وتركوا التعليم.

وبينما كان الحجاج يستهدف لقدح الغاصبين وهجاء الشعراء على هذا الوجه.

كان يفاخر بأنه ابن الأشياخ من ثقيف والعقائل من قريش ومن كان هذا حاله فيبعد كل البعد أن يشتغل بالدباغة أو بيع الزبيب؛ ولكن من الجائز أن يشتغل بالتعليم على الوجه الذي ذكرناه آنفاً.

ومهما يكن من الأمر فوالد الحجاج كان عظيماً في قومه محبوباً محترماً يدلنا على ذلك أنه كان بمصر فمر عليه سليم بن عمرو التجيبي قاضي مصر فنهض إليه والد الحجاج وسلم عليه وقال له: إني أريد أن آتي أمير المؤمنين فإن كانت لك حاجة فأعلمني. قال حاجتي أن تسأله أن يعزلني عن القضاء.

فقال يوسف: والله لوددت أن قضاة المسلمين كلهم مثلك فكيف أسأله هذا؟! ثم انصرف.

فقال الحجاج لأبيه: من هذا الذي قمت إليه فقال: سليم بن عمرو قاضي أهل مصر وقاصهم.

فقال الحجاج: يغفر الله لك يا أبت أتقوم إلى رجل من تجيب وأنت ثقفي؟! فقال: والله يا بني ما أري الناس يرحمون إلا بهذا وأشباهه. فقال الحجاج: والله ما يفسد على أمير المؤمنين الأمر إلا هذا وأشباهه: يقعدون ويقعد إليهم أحداث الناس فيذكرون سيرة أبي بكر وعمر فيخرجون على أمير المؤمنين والله لوصفا لي الأمر لسألت أمير المؤمنين أن يجعل لي السبيل أن أقتل هذا وأشباهه. فقال له أبوه: والله إني لأظن أن الله خلقك شقياً.

فتري من هذا أن والد الحجاج يريد أن يفد على الخليفة وأن القضاة يرونه أهلاً للشفاعة في حوائجهم وأن الحجاج يري لوالده عظمة تسمو به عن القيام لمثل قاضي أهل مصر.

وإذا صحت هذه القصة فإنها تدل على ما كان للحجاج من نفس طموح وثابة وما كان يمتاز به من علم بالأنساب.

وكان والد الحجاج من الذين يحملون بعض الألوية في يوم الربذة حينما بعث مروان بن الحكم بن حبيش بن دلجة القيني لقتال ابن الزبير كما خرج مع مروان قبل ذلك في حملته على مصر لتخليصها من يد عبد الرحمن بن جحدم الفهري عامل بن الزبير.

وكان من كبار الملاك في مكة وقد تزوج بالفارعة سيدة نساء ثقيف وأكثرهن حلياً وقد مات والحجاج وابي على المدينة فنعاه على المنبر.

وكانت أمه الفارعة بنت همام بن عروة بن مسعود الثقفي وكانت قبل زواجها بوالد الحجاج متزوجة بالمغيرة بن شعبة.

ويروي أنها طلقت منه لأنه دخل عليها مرة في السحر فوجدها تتخلل فبعث إليها بطلاقها فسألته عن السبب فأخبرها بأنه دخل عليها في السحر فوجدها تتخلل فقال لها: إن كنت بادرت الغداء فأنت شرهة، وإن كنت بت والطعام بين أسنانك فأنت قذرة. فقالت: كل ذلك لم يكن ولكني تخللت من شظايا السواك ووالله ما فرحنا إذ كنا ولا ندمنا إذ بنا، فندم المغيرة على ما بدر منه وخرج أسفاً فلقيه والد الحجاج فقال له: هل لك إلى شيء أدعوك إليه؟؟ قال: وما ذاك؟ قال إني نزلت الساعة عن سيدة نساء ثقيف فتزوجها فإنها تنجب لك. فتزوجها فولدت له الحجاج.

فالمغيرة الذي أحصن العدد الجم من النساء يأسف على فراقها ثم يبين لوالد الحجاج أنها خليقة بأن تنجب، وبأن تأتي برجل يسود، مما يدل على عظمتها من ناحية، و شخصية والد الحجاج من ناحية أخرى.

وقد أنجبت من المغيرة بنتاً وإن الحجاج نازع عروة بن المغيرة بعد وفاة والده في ميراث الفتاة ورفع القضية إلى ابن زياد.

وكان الحاسدون للحجاج لا يدخرون وسعاً في محاولة النيل منه ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً: يقول ابن الجوزي في تنقيح مفهوم أهل الأثر: أنه بينما كان عمر بن الخطاب يطوف بالمدينة إذ سمع امرأة تقول.

هل من سبيل إلى خمر فأشر بها أم من سبيل إلى نصر بن حجاج

إلى فتيء ماجد الأعراق مقتبل سهل المحيا كريم غير ملجاج

فقال عمر: لا أري معي في المدينة رجلاً تهتف به العواتق في خدورهن وسيره إلى البصرة.

ويذهب ابن الجوزي إلى أن هذه السيدة كانت أم الحجاج بينما يتردد ابن كثير فيروي أنها أمه مرة وأنها جدته من جهة أبيه مرة أخرى.

وهذه رواية قصد بها الحط من شأن الحجاج فإن مثل تلك الأمنية لا تتصور من هذه السيدة العظيمة في قومها بنسبها وزوجها؛ فوالدة الحجاج جدها عروة بن مسعود عظيم القريتين؛ وكانت هي من عظيمات نساء ثقيف حتى أن خولة بنت حكيم السلمية - زوجة عثمان بن مظعون قالت في حصار الطائف: يا رسول الله أعطني إن فتح الله عليك الطائف حلي بادية بنت غيلان أو حلي الفارعة؛ وكانتا من أكثر نساء ثقيف حلياً.

ولا يطيرها كما لا يضير الحجاج إن كانت تزوجت ثم طلقت؛ فقد كانت متزوجة بسيد قومها ولها بينهم ما له من مكانة.

ولثقيف بين القبائل شرف رفعت بناءه بمآثرها ومكارم أخلاقها وظهور شخصيات عظيمة من أبنائها خدموا الدولة الإسلامية في العصر الأموي أجل الخدمات.

غير أنها مع هذا المقام السامي لا تتمتع بنسب ناصع؛ ولعل ذلك راجع إلى الأمور الآتية:

أولاً: تأخر إسلامها.

ثانياً: نزولها الطائف وهي مسكن ثمود في أول أمرهم.

ثالثاً: إخلاص الكثير من رجالها للدولة الأموية، ذلك الأمر الذي جر عليها الكثير من الادعاءات والأقاويل واختلاق أحاديث نسبت إلى الرسول "ص".

وسنحاول ذكر الروايات التي قيلت في نسبها - باختصار - وترجيح ما نعتقده. فتذهب رواية إلى أن نسب ثقيف يرجع إلى قبيلة ثمود التي بادت وانقرضت وأن أباها كان يدعي أبا رغال.

وتختلف الروايات في العمل الذي كان يتولاه وكيفية هلاكه. فمن قائل إنه كان ملكاً بالطائف، وكان ظالماً لرعيته فمر مرة بامرأة ترضع صبياً يتيماً بلبن عنز فأخذها منها وبقي الصبي بلا مرضع حتى مات فرماه الله بقارعة أهلكته فرجم العرب قبره.

ومن قائل إن أبرهة لما توجه بجيشه إلى بلاد العرب خافت ثقيف أن يقصد اللات - صنمهم المعظم - فبعثوا معه مسعود بن معتب وهو أبو رغال ليدله على الكعبة وليحول نظره عن صنمهم فلما رماهم الله بالطير الأبابيل هلك أبو رغال فدفن بين مكة والطائف في مكان يسمي المغمس، فمر النبي بقبره فأمر برجمه فكان ذلك سنة للناس يرجمون ذلك القبر حينما يمرون به.

وقد هجا جرير الفرزدق فقال:

إذا مات الفرزدق فارجموه كما ترون قبر أبي رغال

ومن قائل إن أبا رغال وجهه النبي صالح على صدقات الأموال فخالف أمره وأساء السيرة فوثب عليه ثقيف وهو قسى بن منبه فقتله قتلة شنيعة لسوء سيرته في أهل الحرم.

ومن قائل إن ثقيفاً كان عبداً لأبي رغال، وكان أصله من قوم نجوا من ثمود ثم انتمي بعد ذلك إلى قيس.

فهذه النسب كلها تدور على أن ثقيف من ثمود سواء أكان أبو رغال والد ثقيف أم أن ثقيفاً كان عبداً له!!

ويذكر الرواة في صدد ذلك أحاديث وآثار لا يخالجنا شك في أنها موضوعة مثل حديث (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يحب ثقيفاً وإنه من ثمود وكان في الحرم فمنعه الله منه) وحديث (بنو هاشم والأنصار حلفان وثقيف وبنو أمية حلفان) وما روي عن علي بن أبي طالب "ص" من أنه مر يقوم من ثقيف فتغامزوا به فرجع إليهم وقال: يا عبيد أبي رغال، إنما كان أبوكم عبداً له فهرب منه فثقفه (ظفريه) ثم

انتمي إلى قيس. وأنه قال على منبر الكوفة: لقد هممت أن أضع الجزية على ثقيف لأن ثقيفاً كان عبداً لصالح نبي الله وأنه سرحه إلى عامل له على الصدقة فبعث العامل معه بها فهرب واستوطن الحرم وإن أولى الناس بصالح محمد.

وأن حسان بن ثابت قال:

إذا الثقفي فاخركم فقولوا هلم نعد شأن أبي رغال

أبوكم أخبث الآباء قدما وأنتم مشبهوه على مثال

وقال مرة وهو جالس بمني بعد أن كف بصره.

وكأن حافرها بكل جميلة صاع يكيل به شحيح معدم

عاري الأشاجع من ثقيف أصله عبد ويزعم أنه من يقدم

وكان المغيرة بن شعبة - وهو ثقفي - يسمعه فأرسل إليه بخمسة آلاف درهم يستهويه بها.

إلى غير ذلك من الأخبار التي تنسب ثقيف إلى ثمود.

ويظهر أن نزولهم الطائف كان من الأسباب التي روجت هذه الفكرة وهذا فوق الأسباب التي ذكرناها من إسلامها متأخرة.

وإذا كان هذا سبباً فإن أغلب القبائل قد أسلمت متأخرة وإن الإسلام يقطع ما قبله، وإذا كانت قد أشتدت في معاداة النبي "ص" فقد كانت قريش كذلك لم تسلم إلا مكرهة.

على أن هذه الشدة في العداوة للإسلام تقابلها شدة أخرى في تمسكها به، فإن جميع قبائل العرب ارتدت إلا قريشاً وثقيفاً وثمت سبب آخر هو أن نفوذ ثقيف امتد طوال الحكم الأموي وارتبطت الأسرتان ببعضهما برباط المصاهرة ارتباطاً دفع الوضاعين أن يضعوا أحاديث على النبي "ص" في هذا الارتباط مثل قولهم "بنو أمية وثقيف حلفان".

وقد فند الجاحظ نسبة ثقيف إلى ثمود فقال: وأما ثمود فقد أخبر الله عنهم بقوله "وثمود فما أبقي" ، "فهل تري لهم من باقية" وأنا أعجب من مسلم يصدق بالقرآن ويزعم أن في قبائل العرب من بقايا ثمود!! وكان الحجاج إذا سمع ذلك يقول: كذبوا فقد قال الله عز وجل "وثمود فما أبقى".

وقال مرة "ولئن كنا من بقايا ثمود فما نجا مع صالح إلا خيارهم".

فهو قد رأي فيها فخاراً وتقديراً لأجداده لأنه لم ينج مع الرسول "ص" صالح إلا خيارهم فأهل الطائف هم أبناء هؤلاء الأخيار الذين رضي الله عنهم.

كما أنه إذا صح خطاب عبد الملك الذي حقر فيه شأن ثقيف بأن جدهم كان عبداً لنبي الله صالح وأنه ائتمنه على الصدقات فهرب بها: فإن الحجاج انتهزها فرصة وأبان لعبد الملك بأن ثقيفاً كانت عدل قريش في الجاهلية حتى أنهم لما أرادوا المباهاة وقد نفخ الشيطان في مناخرهم قالوا "لولا أنزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم" فوقع اختيارهم على الوليد بن المغيرة وأبي مسعود الثقفي فصاراً في الافتخار بها صنوين ما أنكر اجتماعهما من الأمة منكر في مد صوت القرآن ومبلغ الوحي.

وبذلك يمكننا القطع بأن نسبة ثقيف إلى ثمود خرافة قد فطن إليها ابن خلدون وكذلك المستشرق لا منس؛ فإنه يقول: وهذه القصة وأمثالها ليست مما يؤيده علم الأنساب والتاريخ بل هي خرافة أذاعها دعاة العباسيين الذين كان يهمهم أن يحطوا من قيمة البيت الأموي وعماله الذين أخلصوا له.

وتذهب رواية أخرى إلى أن ثقيفاً من إياد بن نزار بن معد بن عدنان.

وأن قسياً هو قسي بن منبه بن النبيت بن منصور بن يقدم بن دعمي بن إياد بن نزار ... وأن النخع وثقيف من إياد وأنهما خرجا ومعهما عنز لهما يشربان لبنها فعرض لهما عامل صدقة ملك اليمن وأراد أخذها فأبيا عليه ورماه أحدهما ف فقتله فقال الآخر إنه لا يجمعني وإياك أرض فمضي النخع إلى بثية وأقام بها وصار في عداد مذحج ونزل قسي موضعاً قريباً من الطائف، وتمكن من إرغام العدواني أبي عامر بن الظرب بن قيس بن عيلان على تزويجه بابنته من غير أن يستشير العدواني أحداً.

فلما علم بذلك ابنه عامر قال: لله أبوه لقد ثقف أمره فسمي من ذلك اليوم ثقيفاً.

وغير الناس العدواني بذلك وقالوا له قد زوجت ابنتك بعبد فسار إلى الكهان يسألهم فقال له بعضهم: إنه قسي وقسي عبد إياد؛ وقال له البعض الآخر: إن قسياً من ولد ثمود.

وأستأنس أصحاب هذا الرأي بقول أخت الأشتر مالك بن الحارث النخعي ترثيه:

أبعد الأشتر النخعي نرجو مكاثرة ونقطع بطن وادي

ونصحب مذحجاً بإخاء صدق وإن ننسب فنحن ذرا إياد

ثقيف عمنا وبنوا أبينا وإخوتنا نزار أولو السداد

ويقول شبيب بن يزيد الشيباني في دخوله الكوفة:

عبد دعي من ثمود أصله بل يقال أبو أبيهم يقدم

ومن الواضح أن هذا النسب يكاد ينطق بعدم صحته فإن الرواية التي رواها الأصفهاني في هذا الشأن مضطربة، فإن بعض الكهان قال إنه من إياد، والآخر قال إنه من ثمود.

وقول أخت الأشتر لا يفيد إلا أن قبيلة مذحج لم تنصرهم، وأرادت أن تتقرب لثقيف لتأخذ بيدها في محنتها وأما ما أنشده شبيب من الشعر فهو قول خصم يريد أن يشهر بعدوه؛ ويكاد بعض المؤرخين ينفي ذلك وتذهب رواية ثالثة إلى أنه من هوازن فهو قسي (ثقيف) بن منبه بن بكر بن هوازن.

وهذا ما صرح به كثير من النسابين والمؤرخين وقد ارتضاه الثقفيون لأنفسهم واشتهروا به فنرى أن المغيرة بن شعبة سأل هند بنت النعمان وقد جاء خاطباً لها: ما كان يقول أبوك في ثقيف فقالت: أذكر وقد اختصم إليه رجلان أحدهما ينتمي إلى إياد والآخر إلى هوزان فقضي للإيادي وقال:

إن ثقيفاً لم يكن هوازناً ولم يناسب عامراً ومازناً

إلا قريباً فانشروا لمحاسنا

فقال المغيرة: أما نحن فمن هوازن فليقل أبوك ما شاء.

وهذا ما نراه في نسب هذه القبيلة التي اضطربت الرواية في أخبارها والتي لم يقتصر الطعن فيها على أصلها بل وجه إلى جده وإلى الحجاج نفسه.

كانت الطائف في الجاهلية للعمالقة ثم نزلتها ثمود – قبل وادي القرى – ثم سكنها بنو عدوان ثم غلبهم عليها بنو عامر بن صعصعة. ثم تمكنت ثقيف بدهائها من احتلالها.

وذلك أن بني عامر بن صعصعة بن بكر بن هوازن كانوا يصيفون بالطائف ويشتون بأرضهم من نجد وكانت ثقيف قد نزلت حول الطائف: فحاولت ثقيف

أن تمتلك الطائف حينما أعجبهم نباتها وطيب ثمرها فأبانت لبني عامر أنه في الإمكان أن تستغل أرض الطائف استغلالاً تاماً، كاملاً بحفر الآبار وعرضوا عليهم استعدادهم للعمل إذا ما مكنهم بنو عامر من الأرض ودفعوا لهم الماشية للعمل عليها - لأنه لم يكن لثقيف مواش - نظير نصف ما يخرج منها.

فرحب بنو عامر بهذه الفكرة وسلموا إليهم ا لأرض ونزلت ثقيف البلاد فزرعت الأعناب والثمار ووفت بما اشترطت على نفسها حيناً من الزمن.

وفي ذلك الحين كان قد كثر عدد ثقيف وحصنت الطائف ببناء سور لها واستبدت بالأمر ولم تدفع شيئاً لبني عامر فحاول بنو عامر أخذ الأرض منهم بالقوة فلم يظفروا بشيء وتمت الغلبة لثقيف فملكت الطائف.

كانت ثقيف من القبائل المناوئة للإسلام في بدئه شأنها شأن كل القبائل العربية. ولما مات أبو طالب عم الرسول "ص" ونالت قريش منه ما لم تنل من قبل فكر الرسول "ص" في قبيلة تعادل قبيلته وتساجلها في مذاهب العروبة وتنازعها في الشرف فوجد ثقيفاً فسار إلى الطائف يلتمس من أهلا النصرة والمعونة من قومه ولكن تمسك ثقيف بدينها جعلها لا تقبل الدعوة واستمرت كذلك حتى فتح الله مكة على المسلمين وانتصر الرسول "ص" على قريش ذلك النصر العظيم فلم تخضع تلك القبيلة ولم تسلم بل اجتمعت وقررت أن تسير لحرب محمد "ص".

علم الرسول بذلك فأرسل رسولا لمعرفة حقيقة الأمر فذهب عبد الله بن حدرد ورجع فأخبر بأن القوم قاصدون حرب المسلمين فخرج الرسول في اثني عشر ألفاً منهم عشرة آلاف من المهاجرين وألفان من الذين أسلموا يوم الفتح وهو أكثر جند خرج به الرسول "ص" وسار حتى وصل وادي حنين في أول يوم من شوال من السنة الثانية للهجرة.

وكانت هوزان قد كمنت في جانبيه فحملوا على المسلمين حملة رجل واحد فولي المسلمون لا يلوي أحد على أحد وثبت الرسول "ص" ومعه عدد قليل ونادي العباس وكان جهير الصوت فاجتمع حول الرسول نحو المائة وحمي وطيس القتال وانتصر المسلمون وسار الرسول إلى الطائف وحاصرهم.

وصار برميهم بالمنجنيق وهم يرمون جيشه بالنبال حتى استشهد عدد عظيم من المسلمين في ذلك الحصار. رأي الرسول أن الحصار سيطول أمده وسيعرض المسلمين لخسائر فادحة فأمر برفع الحصار.

فقال رجل: يا رسول الله ادع على ثقيف. ولكن الرسول كان يعرف أهمية ثقيف وإسلامها فقال "اللهم أهد ثقيفاً وأت بهم".

وقال عيينه بن حصن الفزاري "أجل والله مجدة كراماً" فقال رجل من المسلمين: قاتلك الله يا عيينة أتمدحهم بالامتناع من رسول الله؟!! فقال والله ما جئت لأقاتل معكم ثقيفاً ولكني أردت أن يفتح محمد "ص" الطائف فأصيب من ثقيف جارية أتبطنها لعلها تلد لي رجلاً فإن ثقيفاً قوم مناكير.

وارتحل الرسول عن الطائف حتى نزل الجعرانة وكانت الأموال قد حبست بها – فأتاه هناك وقد من هوزان مسلمين فقالوا: يا رسول الله إنا أصل وعشيرة وقد أصابنا من البلاء ما لا يخفي عليك فمن علينا وقال له رجل: إنما في الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتي كن يكفلنك.

وبهذا وبمثله تنازل الرسول "ص" عما خصمه من السبي الذي كان قد سباه من هوزان وتنازل كذلك المسلمون تبعاً للرسول ثم وفد عليه مالك بن عوف النضري – أحد الزعماء – فرد عليه أهله وماله وأعطاه فوق ذلك مائة من الإبل فأسلم وحسن إسلامه واستعمله الرسول "ص" بعد ذلك على قومه وعلى من أسلم من تلك القبائل التي حول الطائف فضيق على الذين لم يسلموا باستباحة سرحهم وقطع سابلتهم.

ولما رأت ثقيف أن الذين يجاورونهم من العرب قد أسلموا وصاروا يناوئونهم فلا يخرج لهم مال إلا نهب ولا إنسان إلا أخذ وأن الرسول "ص" قد خرج إلى تبوك؛ فأخاف من لم يسلم وعقد المعاهدات مع أهل أيلة وأهل جربا وغيرهما لما رأت ثقيف ذلك اجتمعوا وقر رأيهم على الإسلام طواعية قبل أن يكرهوا على ذلك بحرب فأرسلوا في رمضان من السنة التاسعة للهجرة وفدا من زعمائهم إلى الرسول"ص" ليتفاوضوا معه في أن لا يهدم اللات ثلاث سنين وأن يعفيهم من الصلاة فأبي الرسول عليه السلام ذلك مبيناً أن إسلامهم يجب أن يكون بمحو

الوثنية ومظاهرها فقبلوا الإسلام بلا قيد ولا شرط.

وبإسلام قريش وثقيف قدمت وفود العرب من كل حدب وصوب.

وكما كانت ثقيف شديدة في شركها حريصة على معتقداتها فقد كانت أقوي القبائل إيماناً وأشدها تمسكاً بالإسلام. فإنه لما مات رسول الله "ص" ارتدت جميع قبائل العرب عدا قريش وثقيف.

واستمرت ثقيف في إخلاصها للإسلام والمسلمين وعملت بجد في خدمته وأخلصت للخلافة الإسلامية أي إخلاص. وقد اشتهر منها رجال كانوا رواة للحديث وعلماء في الطب واللغة والحرب والسياسة.

فمن هؤلاء عروة بن مسعود الثقفي عظيم الطائف؛ وأحد الشخصيات البارزة في جزيرة العرب وأحد الرجلين اللذين قال فيهم العرب "لولا أنزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم".

وكان غائباً عن الطائف حينما حاصره النبي "ص" فقد كان بجرش يتعلم صناعة المجانيق.

ولما قدم الطائف بعد انصراف رسول الله قذف الله في قلبه الإسلام فخرج إلى رسول الله في شهر ربيع الأول من سنة تسع للهجرة فأسلم وسر رسول الله بإسلامه ثم استأذن رسول الله في الخروج إلى قومه ليدعوهم إلى الإسلام فقال له الرسول: إنهم قاتلوك. فقال: لو وجدوني نائماً ما أيقظوني فسار إلهيم وأعلن إسلامه فقتله قومه وكادت تقع بين بطون ثقيف الحروب لولا أنه تصدق بدمه على قاتله – قبل موته – واعتبر ذلك شهادة ساقها الله إليه. وبلغ النبي ذلك فقا "مثل عروة مثل صاحب "يس" دعا قومه إلى الله فقتلوه.

الحارث بن كلدة: بن عمرو بن علاج الثقفي. طبيب العرب في وقته، رحل إلى أرض فارس وأخذ الطب عن أهل تلك الديار في الجاهلية وأجاد في هذه الصناعة وطب في موطن العلم وعالج بعض عظماء فارس فأهدي له بعضهم مع جاريته سمية مالاً كثيراً وتعلم صناعة العود في فارس أيضاً وكان له تقدم في النحو.

ولما مرض سعد بن أبي وقاص عادة النبي "ص" وأوصاه بأن يعرض نفسه على الحارث وأوصي كل من كانت به علة أن يعرض نفسه على طبيب العرب مما يدل على نضوجه وتفوقه.

ومنهم أبو عمرو عيسي بن عمر الثقفي النحوي البصري: كانت بينه وبين أبي عمرو بن العلاء صحبة ولها مسائل ومجالس وقد أخذ عنه سيبويه النحو وألف كتاباً سماه الجامع في النحو؛ ويقال إن سيبويه أخذ هذا الكتاب وبسطه وعلق عليه من كلام الخليل بن أحمد وغيره ثم نسبه إلى نفسه؛ وهو الكتاب المشهور باسم كتاب سيبويه ولم يقتصر تأليف على كتابه الجامع بل ألف نيفا وسبعين كتاباً في النحو، قد ضاعت وحفظ لنا الزمن هذا الكتاب وآخر اسمه الإكمال.

وكان عيسي نفاذاً فكان يخطئ بعض الشعراء المشهورين مثل النابغة، ومن تلاميذه الخليل في النحو والقراءات، والأصمعي في القراءات ومات في حدود سنة تسع وأربعين ومائة للهجرة.

ومنهم أبو محجن الثقفي الشاعر: كان في جيش أبي عبيدة الثقفي يوم الجسر وقد أبدي من الشجاعة الشيء العظيم وقد تجلت شجاعته ووفاؤه في يوم أرماث.

ذلك أنه كان في حبس سعد بن أبي وقاص فاستأذن امرأة سعد في أن تحل قيده ليخرج إلى قتال الفرس فإن قتل فقد نال الشهادة وإن سلم رجع ثانية إلى حبسه. فحلت قيده وخرج فقاتل المشركين قتالاً شديداً عجب منه الناس حتى قال بعضهم إنه نصر نزل من السماء إلى الأرض وظنه البعض الآخر هاشم بن عتبة الأمير المنتظر من الشام؛ وبعد أن انتهت الموقعة رجع إلى قيده وفاء بوعده.

ودخل ابنه يوماً على معاوية بن أبي سفيان فقال أبوك الذي يقول:

إذا مت فادفني إلى أصل كرمة تروي عظامي بعد موتي عروقها

فقال أبي الذي يقول:

لا تسألي الناس عن مالي وكثرته وسائلي الناس عن بأسي وعن خلقي

القوم يعمل أني من سراتهم إذا تطيش يد الرعد يدة الفرق

قد أركب الهول مسدولاً عساكره وأكتم السر فيه ضربة العنق

وغيلان بن سامة بن شرحبيل الثقفي: أحد الوافدين على كسري من ثقيف وقد أعجب به كسري حين سأله عن أحب أولاده إليه وأجابه بقوله: الصغير حتى يكبر، والمريض حتى يبرأ، والغائب حتى يؤوب، وكان شاعراً توفي في آخر خلافة عمر وكان من رواة الحديث.

ومن رواة الحديث أيضاً من هذه القبيلة أوس بن أوس الثقفي وأبو عاصم الثقفي وابن أبي إبراهيم الثقفي.

والمغيرة بن شعبة بن أبي عامر بن مسعود بن معتب: أحد دهاة العرب الأربعة.

يروي أن الشعبي قال: إن معاوية للأناة والحلم وعمرو للمعضلات والمغيرة للبديهة وزياد للصغيرة والكبيرة.

ويقول عنه معاوية: إن المغيرة للأمر العظيم ولي البصرة والكوفة لعمر بن الخطاب وأقره عثمان ثم عزله ولما قتل عثمان دخل المغيرة على علي ونصحه نصيحة لو عمل بها لاستقر له الأمر.

وكذلك نراه يقول لمعاوية بعد استقرار الأمر له – وقد رأي عمرو بن العاص بمصر والمغرب وعبد الله ابنه بالكوفة – تفعل هذا فتكون بين فكي الأسد.

فمشورته تدل على العقل الناضج والرأي السليم؛ وقد شهد بيعة الرضوان وشهد حروب اليمامة وفتوحات الشام واليرموك – وقد ذهبت إحدى عينية في هذه الموقعة – والقادسية وكان من الصحابة الأجلاء والأمراء النبلاء؛ وهو أول من وضع ديوان الأمراء وأول من سلم عليه بالإمرة ولما حضرته الوفاة قال: اللهم هذه يميني بايعت بها نبيك وجاهدت بها في سبيلك. مات وهو أمير الكوفة في سنة خمسين من هجرته "ص"، وقد رثاه بعض الشعراء.

أبو عبيد بن مسعود الثقفي: أول من لبي نداء عمر بن الخطاب في الخروج إلى العراق؛ ولذا ولاه إمرة الجيش دون من خرج معه من المهاجرين والأنصار، وسار حتى لقي الفرس بالنمارق فهزمهم وأسر في الموقعة جابان قائد

الجيش؛ وقد أسره رجل من عامة الجيش وأمنه فوفي له أبو عبيد بالأمان ولم يقتله على الرغم من إلحاح الذين معه بوجوب قتله.

وقد أبدي في يوم الجسر من الشجاعة والبسالة والإخلاص ما جعله في مصاف العظماء وقد قتل في ذلك اليوم وأخذ اللواء بعده أخوه الحكم فقتل ثم ابنه جبر فقتل وصارت ثقيف تتداوله حتى قتل منها سبعة في ذلك اليوم.

المختار بن أبي عبيد الثقفي: كان طموحاً وقد بدا طموحه من صغره فتراه يشير على عمه سعد بن مسعود الثقفي أمير المدائن حينما جرح الحسن بن على في مظلم ساباط - بالمدائن - بدفع الحسن إلى معاوية للتقرب به إليه فأبي عمه ولهذا عد الشيعة المختار عثمانياً.

ولما ذهب مسلم بن أبي عقيل إلى الكوفة، كان المختار أحد الذين بايعوه وقد حبسه ابن زياد لذلك ثم توسط له زوج أخته عبد الله بن عمر فأطلق سراحه فسار إلى ابن الزبير واشترط عليه أن يوليه أفضل أعماله وأن لا يقطع أمراً دونه فأظهر ابن الزبير قبول شروطه وشهد معه حصار الحصين بن نمير ولكن ابن الزبير لم يف له بالشرط فتركه وسار إلى الكوفة حينما علم أن الفتنة قد برقت فيها ورعدت وقبل خروجه أتي محمد ابن الحنفية وأبان له أنه سيخرج للطلب بدم الحسين والانتصار لآل البيت فلم يأمره ولم ينهه وأوصاه بتقوي الله.

ويروي أنه قال إني لأحب أن ينصرنا ربنا ويهلك من سفك دماءنا، ولست أمر بحرب ولا إراقة دم فإنه كفي بالله ناصراً ولحقنا آخذاً وبدمائنا طالباً.

وقد تذرع المختار بهذه الوسيلة التي أخذها عن المغيرة بن شعبة ذلك أنه بينما كان المغيرة راكباً بسوق الكوفة وكان معه المختار فقال المغيرة: أما والله إني لأعرف كلمة لو دعا بها أريب لاستمال أقواماً فصاروا له أنصاراً ثم لاسيما العجم الذين يقبلون ما يلقي إليهم فقال المختار وما هي يا عم؟!

قال: يدعوهم إلى نصرة آل محمد والطلب بدمائهم. فكانت هذه الكلمة في نفس المختار حتى دعا.

وقد استعمل المختار دهاءه في ضم الناس إليه بما وهبه الله من فطنة ودهاء فإن المختار من دهاة ثقيف وثقيف من دهاة العرب.

وخرج بمن انضم إليه وناوأ الخلافة الزبيرية وتغلب على عمال عبد الله بن الزبير بالكوفة وظفر بأغلب قتلة الحسين وحدثت بينه وبين مصعب بن الزبير معارك انتهت بقتله في سنة تسع وستين للهجرة.

وسمر مصعب يد المختار على حائط المسجد الجامع فلم تزل حتى قدم الحجاج بن يوسف العراق فأمر بها فانتزعت ودفنت.

محمد بن القاسم الثقفي: وإلى ثغر السند من قبل الحجاج في سنة تسع وثمانين وقد أخضع في ولايته هذه مكران وواصل تقدمه في المنطقة المعروفة باسم بلوخستان وفتح الديبل والبيرون (حيدر أباد) واستمر في سيره شمالاً حتى وصل الملتان في جنوب البنجاب.

وكان من نبوغه أن ولي قيادة الجيش وهو ابن سبع عشرة سنة فنجح ووفق توفيقاً عظيماً.

يوسف بن عمر الثقفي: ولي اليمن لهشام بن عبد الملك في سنة ست ومائة للهجرة ثم ولي العراق في سنة عشرين ومائة، وهو أحد المجددين للدراهم المسماة باسمه (اليوسفية).

ولقد تحدثنا على هؤلاء بشيء من التفصيل لبيان أن عصر صدر الإسلام والعصر الأموي كان مليئاً بالثقفيين من مختلف الطبقات؛ وليس هذا حصراً لمن تقدم في الدولة الإسلامية فإن غيرهم كثير من العلماء والمثقفين والشعراء الذين ظهروا في عهد الدولة الإسلامية ولم يختصر هؤلاء فقط على المثقفين. ولكن أن الكثير منهم ظهر في عهد الدولة الأموية ولكن هذا لا يمنع أنهم كانوا مشاه للأعداء وهزموا الدولة الأموية بإخلاص وتفاني فمنهم محمد بن يوسف والي اليمن في عهد عبد الملك ابن مروان وزائدة بن قدامة محارب الخوارج، وأمية بن أبي الصلت الشاعر المشهور الذي كان يفكر في أنه سيكون النبي المبعوث والحكم بن أيوب والي البصرة في عهد الحجاج.

وحقا لقد أخرجت لنا ثقيف رجالاً كانوا مروضين للبدو، ضربوا بسهم وافر في الحرب والسياسة والطب. وبهم فتحت الفتوح ومصرت المدن، مما يدلنا على مكانة هذه القبيلة.

وكان الحجاج أحد هؤلاء الذين لعبوا دوراً كبيراً في التاريخ الإسلامي وأكبر شخصية في عهد الوليد الأول بلا منازع.

مولد الحجاج - نشأته - تعليمه

ولد الحجاج بقرية الكوثر من قري الطائف في سنة إحدى وأربعين من الهجرة وقد لقب طول حياته بالحجاج وكان يكني بأبي محمد.

وقد أحاط المؤرخون حياته الأولي بجو من الأساطير يرجعونها إلى ما قبل ميلاده للاستدلال على أنه كان محباً لسفك الدماء والجور والفساد.

اقتصر من هذه الأساطير على أسطورة أنه لم يقبل ثدي أمة ولا غيرها فتصور الشيطان لهم بصورة الحارث بن كلدة الثقفي - طبيب العرب - فقال لهم اذبحوا له جدياً أسود وأولغوه دمه، وفي اليوم الثاني أفعلوا به كذلك فإذا كان اليوم الثالث فاذبحوا له تيسا اسود وأولغوه دمه، ثم اذبحوا له أسود سالخاً وأولغوه دمه وأطلوا به وجهه فإنه يقبل الثدي في اليوم الرابع "المسعودي - مروح الذهب وابن خلكان - وفيات الأعيان وابن كثير والعمادي - شذرات الذهب في أخبار من ذهب وصاحب غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائص الفاضحة. والعيني - عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان".

ويعقب المسعودي على هذه الأسطورة بقوله: فكان بعد ذلك لا يصبر عن سفك الدماء وارتكاب أمور لا يقدم عليها غيره ولا يسبق إليها أحد سواه.

واهتمام العرب برواية الأعمال الخارقة من ناحية وكرههم لحاكم العراق من ناحية أخرى كل ذلك أوحي لكتابهم هذه الأسطورة حول ولادته، إذ كانوا يريدون أن يضعوا إبليس إلى جانب مهده.

ومن الكتاب من تمادي في ذلك فحدثنا عن الحجاج قبل ولادته، وقد يطول بنا الحديث لو تعرضنا لشيء من هذه الروايات.

نشأ الحجاج بالطائف وهي مدينة تقع جنوبي شرقي مكة وعلى بعد ستة فراسخ ونصف منها قائمة على طرف مرتفعات نجد الوسطي عند ملتقى الطرق الآتية من أطراف شبه جزيرة العب وتحيط بها بساتين الفاكهة والحقول الخصبة التي ترويها المياه الغزيرة المتفجرة من الآبار والسدود.

ولقد كانت هذه المدينة هي الوحيدة التي جارت مكة قبل الإسلام فبينما نرى أن ازدهار مكة راجع لكونها مدينة مقدسة يحج إليها العرب في مواسم معروفة نري ازدهار الطائف راجع لكونها محط القوافل التي تمر بها، ولمحصولات حدائقها من الكروم.

ولقد أطلق العرب على هاتين المدينتين اسم القريتين.

ومناخها معتدل لحسن موقعها وإحاطة البساتين بها وقد اشتهر أهل الطائف بحضور البديهة وحسن التفكير.

وكانت لهجة أهل الطائف من أقوم لهجات الجزيرة العربية. حديث في خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان أن قدمت نسخة للقرآن فوجد فيها خطأ فقال "نظن أن الناقل لم يكن من أهل الطائف وأنه لم يكتب تحت إملاء عربي من بني هذيل".

ولقد كان أهل الطائف في مواطنهم على اتصال دائم ببدوا هذيل أفصح وأشعر قبيلة في الحجاز بل وفي كل البلاد العربية ولهذا أرسل الخلفاء العباسيون بخدمهم الأجانب إلى الطائف ليتعلموا فيه اللغة المستقيمة وليحسنوا لغتهم العربية.

في هذا الجو، وفي هذه البيئة نشأ الحجاج فكان لغوياً دقيقاً في لغته فصيحاً بليغاً في خطابته وقد حفظ القرآن في كنف أبيه وأجاده شأنه شأن كل الأطفال في جميع الأزمان والعصور.

وبدراسة حياة الحجاج نري انه كان عالماً بتفسير القرآن الكريم ورواية الحديث حافظاً لكثير من أشعار العرب وأيامهم كثير الاستشهاد بذلك في المقامات المختلفة.

فأين درس التفسير وروي الحديث والشعر؟

والجواب على ذلك سهل إذا علمنا أن الطائف لا تبعد عن مكة كثيراً، وكانت مكة والمدينة أهم مراكز الثقافة الإسلامية في ذلك العصر وكان بها كبار الصحابة والتابعين وكان الناس يجلسون إليهم يفسرون لهم القرآن ويعلمونهم السنة ويفتنونهم

في أمورهم ويروون لهم المغازي والسير والفتوح، وعلمنا كذلك أن الحجاج رحل يافعاً إلى مكة كعبة الفصحاء والعلماء والشعراء. فازدهرت مواهبه كأثر للبيئة الجديدة التي عاش فيها قيل عنه: إن عقول الناس كانت تقرب بعضها من بعض إلا ما كان من عقل الحجاج وإياس بن معاوية فإن عقولهما كانت ترجح عقول الناس.

فسمع التفسير عن حبر الأمة ابن عباس وروي الحديث عنه وعن أنس بن مالك وسمرة بن جندب وأبي بردة بن أبي موسي الأشعري وعبد الملك بن مروان.

وقد روي عنه موسي بن أنس وسعيد بن أبي عروبة ومالك بن دينار وثابت البنان وحميد الطويل والأعمش والربيع بن خالد الضبي وعوف الأعرابي وقتيبة بن مسلم وغيرهم.

وكان الحجاج من رواة الحديث إلا أن علماء المصطلح لا يوثقونه لا لضعف في مكانته العلمية وإنما أخذوا عليه أموراً أرجف بها المعادون له حتى قال عنه بعض علماء الحديث "فلولا ما ارتكب من العظائم والفتك لمشي حاله".

ولسنا هنا بصدد الدفاع عن تلك العظائم وذلك الفتك الذي أشار إليه هؤلاء العلماء فموضوع ذلك في باب آخر. إلا أننا نقطع بأن الكثير مما أخذ على الحجاج كانت تقتضيه مصلحة الدولة والمصلحة العامة، وبعضه تافه لا يستحق الذكر.

ولما كان الحجاج نشأ في بيئة تحيط بها البداوة من كل جانب ولا تسري إليها لوثة المدن فكان بذلك غاية في الفصاحة حتى قال عنه عمرو بن العلاء: ما رأيت أفصح منه ومن الحسن البصري وخطبه في الكوفة والبصرة دالة على هذا.

ولقد روي الحجاج الشعر في مكة عن كثيرين ممن سبق ذكرهم وكان يتمثل به كثيراً في خطبه وكتبه.

فمن ذلك يتبين لنا أنه نشأة عظيمة وقضي جزءاً كبيراً من شبابه إلى أن بلغ الرابعة والعشرين - ببلاد العرب ثم اتصل بعد ذلك بخدمة الدولة الأموية. مما جعل بعض المؤرخين يري أن نشأته كانت بالشام.

اتصاله بالخلفاء والأمراء

تمهيد. ذهابه إلى مصر. المدينة اتصاله بعبد الملك بن مروان وإعجابه به وإرساله في وفد لمفاوضة زفر بن الحارث ولايته لتبالة ولايته شرطة فلسطين. إعداده الجيش الشامي لمحاربة مصعب بن الزبير.

شهد الحجاج عصر بني أمية من بدايته وشهد الحوادث فيه ورأي انقسام الجماعة الإسلامية على طوائف وأحزاب متنازعة كل جماعة تريد أن تطغي على الأخرى ويكفر بعضها بعضا، ورأي كثيراً من الولاة والقواد الذين بلغوا الذروة من الشهرة في ميدان الحرب والسياسة أو سمع بأسمائهم؛ ومما ضاعف الأثر في نفسه أن كان بعض هؤلاء من قبيلة ثقيف كالمغيرة بن شعبة وزياد بن أبيه والمختار بن أبي عبيد الثقفي.

فكان لأخبار أولئك العظماء أثر في نفس الحجاج وطموحها إلى الانتظام في مصافهم وبلوغ مراتبهم وعمل على ذلك؛ فبدأ حياته بانخراطه في سلك الجندية في سن الخامسة والعشرين؛ وذلك كان في الحملة الذاهبة إلى مصر لتخليصها من يد عبد الرحمن بن جحدم الفهري – عامل ابن الزبير في عهد مروان بن الحكم وبقيادته بعد أن استقرت له الأحوال بالشام – فقبض مروان على ناصية الحال في مصر ورجع إلى الشام في رجب من سنة خمس وستين للهجرة.

وفي الشهر التالي (شعبان سنة خمس وستين) لعودة مروان إلى الشام أرسل جيشاً إلى المدينة بقيادة حبيش بن دلجة القيني لمحاربة ابن الزبير؛ وكان والد الحجاج في هذا الجيش يحمل بعض الألوية فسار ذلك الجيش حتى وصل إلى الربذة حيث قابلته جيوش ابن الزبير بقيادة مسروق النصري قادماً من مكة – وعباس بن سهل الساعدي – من المدينة – والحنتف بن السجف – من البصرة – ومحمد بن الأشعث – من الكوفة، وقد انتصر حبيش بن دلجة القيني في بدء المعركة لولا أن الحنتف بن السجفي كان قد أكمن لهم كميناً خرج عليهم فقتل "حبيش" وانهزم الشاميون ونجا الحجاج ووالده في ذلك اليوم.

ثم اتصل الحجاج بروح بن زنباع فكان في جملة شرطته، وكان روح صفي عبد الملك يستثيره في كل الأمور ولا يكاد يفارقه فكان له مقام الوزير.

ولما أراد عبد الملك التوجه لقتال زفر بن الحارث بقرقيسياء وجد صعوبة في تعبئة الجيش وجمع الجنود لأن الجيش كان مختل النظام لا يرحل برحيل قائده ولا ينزل بنزوله.

وفاتح في ذلك روح بن زنباع واستشاره في الأمر فقال روح: يا أمير المؤمنين إن في شرطتي رجلاً يقال له الحجاج بن يوسف لو قلده أمير المؤمنين أمر عسكره لأرحلهم برحيله وأنزلهم بنزوله قال: فإنا قد قلدناه ذلك فكان يعد ذلك لا يقدر أحد على التخلف إلا أعوان روح بن زنباع فوقف عليهم مرة وهم يأكلون وقال لهم ما منعكم أن ترحلوا برحيل أمير المؤمنين؟ فسخروا منه ووجهوا إليه ألفاظاً قارصة وطلبوا منه أن ينزل ليأكل معهم فأبي ثم أمر بهم فجلدوا بالسياط وطوفهم في المعسكر وقطع أطناب خيمهم وأشعل النار فيها.

علم بذلك روح بن زنباع فدخل على عبد الملك شاكياً الحجاج فطلبه عبد الملك وقال له: ما حملك على ما فعلت؟ قال: ما أنا فعلت يا أمير المؤمنين قال: ومن فعله؟!! قال الحجاج: أنت والله فعلت فإنما يدي وسوطي سوطك وما على أمير المؤمنين أن يخلف على روح عوض الفسطاط فسطاطين والغلام غلامين ولا يكسرني فيما قدمني له؟!

وتروي بعض المصادر أنه قال له عندما سأله عمن فعل هذا بغلمان روح فقال: أنت يا أمير المؤمنين أمرتنا بالاجتهاد فيما وليتنا ففعلنا ما أمرت وبهذه الفعلة يرتدع من بقي من العسكر، وما على أمير المؤمنين أن يعوض عليهم ما ذهب، وقد قامت الحرمة وتم المراد؟!

فأعجب عبد الملك به وقال: إن شرطيكم لجلد - ثم أقره على ما هو عليه وزاد ذلك في منزلته عنده.

لما طال القتال بين عبد الملك وزفر أرسل عبد الملك وفداً لمفاوضة زفر بن الحارث برئاسة رجاء بن حيوة فكان من بين أعضائه الحجاج بن يوسف فحدث أن حضر الوفد عند زفر في وقت وجوب الصلاة فقام رجاء فصلي مع

زفر وصلي الحجاج وحده فسئل عن ذلك فقال: لا أصلي مع منافق خارج على أمير المؤمنين وعن طاعته.

فسمع عبد الملك بذلك فزاد إعجابه بالحجاج ورفع قدره وولاه تبالة وهي أول ما ولي الحجاج – فلما قرب منها سأل عنها فقيل له غنها وراء هذه الأكمة فقال "أف لبلدة تسترها أكمة" ورجع عنها فقيل في المثل أهون من تبالة على الحجاج. كان الحجاج من خلال هذه المواقف ليلفت إليه نظر مروان بن الحكم من أجل تحقيق طموحاته السياسية. وكانت شدة هذه المواقف وطريقة التعامل معها جذب انتباه عبد الملك وخاصة أن الدولة الأموية كانت في تلك المرحلة تمر باضطرابات شديدة وخاصة ثورة بن الزبير في الحجاز وفي بعض الأمصار الإسلامية وعجز عبد الملك من القضاء عليها. لذلك لعب الحجاج دور المنفذ للدولة ا لأموية بشدة سطوته وجه لسفك الدماء. فكانت مواقفه أعجبت عبد الملك وسامه مسئولية القضاء على ثورة بن الزبير فكان ما كان من هذه المواقف التي جلبت السخط على الدولة الأموية.

ويبدو لنا أنه عاد إلى أمير المؤمنين يعتذر له عن الولاية ويطلب منه عملاً في الجيش فولاه عبد الملك بن مروان شرطة فلسطين لأخيه أبان بن مروان.

ولما استقرت الأحوال بالشام لعبد الملك بن مروان وأراد الخروج إلى العراق لتخليصها من مصعب بن الزبير – وإليها من قبل أخيه عبد الله – جعل يستنفر أهل الشام فيبطئون عليه، فقال له الحجاج سلطني عليهم فوالله لأخرجنهم معك فأذن له في ذلك فيروي أن الحجاج كان لا يمر على باب رجل من أهل الشام إلا أحرق عليه داره فلما رأي الناس ذلك سارعوا إلى الخروج.

ولربما اتهم الحجاج بالإفراط في القسوة في تنفير أهل الشام للقتال ولكنها وسيلة كانت تبررها غاية، تلك هي توطيد الملك وجمع الرعية حول الإمام وقد نجحت واجتمع لدي عبد الملك جيش كبير حتى أنه لما نظر أصحاب مصعب إليه تؤاكلوا وشملهم الرعب وداخلهم الخوف والفزع فأمكنه أن ينتصر على مصعب في مسكن بدير الجاليق وقتله في ثلاث عشرة من جمادي الآخرة لسنة اثنتين وسبعين للهجرة وبقتل مصعب صفا العراق لعبد الملك بن مروان.

الحجاج وبن الزبير

تفكير عبد الملك في حملة للحجاز قيادة الحملة وإسنادها للحجاج سيرها إلى مكة.

حصار الحجاج لعبد الله بن الزبير وحربه له.. قتل عبد الله بن الزبير.

أسباب انتصار الحجاج تبعة مهاجمة الحرم وضرب الكعبة بالمنجنيق.

وبعد مقتل مصعب آلت الأمور في العراق إلى عبد الملك بن مروان فصفا له الجو فيه وخفقت عليه أعلامه.

أما الحجاز فإنه كان لا يزال تحت إمرة عبد الله بن الزبير اعتصم به حيث سمي العائذ بالبيت والتمس في أرض الحرمين معقلاً ولم يرد الخروج منه مجال.

فكر عبد الملك في أمر هذا الخارج عليه المعتصم ببيت الله الحرام فرأي أن لا مندوحة له – إذا أراد أن يثبت عرشه – من أن يحارب هذا الخارج حتى يقضي عليه.

هل فكر عبد الملك وهو لا يزال بالعراق؟؟ أو انه عاد من العراق منتصراً ففكر وهو في مقر ملكه؟؟ وهل قطع برأي في ذلك وهو بالعراق فخرجت حملة الحجاز من العراق أو أنه قطع بذلك وهو في الشام فخرجت حملة الحجاز من الشام؟

تذهب أكثرية المراجع إلى أن خروج الحملة كان من العراق بينما تذهب أقلية من المصادر المتأخرة إلى أن الحملة خرجت من الشام، وتوجه هذه المصادر ما ذهبت إليه بإيراد قصة عن حديث دار بين عبد الملك وأخصائه من أهل الشام، وتصف لنا كيف أن هؤلاء الأخصاء استكبروا في أنفسهم تجريد حملة على الحرمين، وأنهم قعدوا عن متابعة عبد الملك فيما يريد، بل تزيد على ذلك أنه فاتحهم في الأمر فصمتوا حتى تقدم الحجاج فآل إليه أمر الحملة. ويذكرون في تفاصيل الحملة أنها في خروجها إلى مكة لم تتعرض للمدينة المنورة بسوء مما يرجح أن الحملة كانت آتية من الشام.

وفي رأينا أننا لا نستطيع أن نتجاهل إجماع المصادر على خروج الحملة عن العراق، بل عن إجماع هذه المصادر على كثرتها وأقدميتها إزاء قلة المصادر المتأخرة يسمح لنا بأن نقطع بأن الحملة خرجت من العراق.

أما قصة المرور بالمدينة المنورة وعدم التعرض لها فبين أيدينا من المعاجم الجغرافية ما يستدل منه على أن الطريق المطروقة بين العراق ومكة تمر بالمدينة كما تمر بها طريق الشام إلى مكة.

أما قصة الحديث الذي جري بين عبد الملك وأخصائه من أهل الشام فلم يرد نص – في غير هذه المصادر المتأخرة – على أن الحديث جري في دمشق؛ وليس هناك ما يمنع من أن يكون الحديث قد جري فعلاً بينه وبين هؤلاء ولكن في الكوفة بدلاً من دمشق.

على أن الحديث في ذاته يبدو موضوعاً ذلك أن حديث يماثله كل المماثلة قد أوردته بعض المصادر بصدد ولاية الحجاج للعراق.

وفي رأينا أن المؤرخين الذين قالوا بخروج الحملة من الشام قد جرهم إلى ذلك ما أجمعت عليه المصادر المتقدمة من أن الجيش الذي خرج به كان شامياً، والواقع أن الجيش الذي خرج به الحجاج من الكوفة وكان أغلبه شامياً – هو بعض بقايا الحملة التي خرج بها عبد الملك – وتحت إمرة الحجاج – من الشام حيث حاربوا مصعب ابن الزبير وانتصروا عليه.

نخلص من كل ذلك إلى أن حملة الحجاز خرجت من العراق وتجمع المصادر على أنها أسندت إلى الحجاج ولكنها تختلف في الطريقة ا لتي أسندت بها هذه القيادة إليه فتروي بعض المصادر أن عبد الملك بن مروان هو الذي أسند قيادة الحملة إليه بينما يروي البعض الآخر أن الحجاج هو الذي رشح نفسه لهذه الحملة وعمل على أن يندبه لها عبد الملك.

وتذكر هذه المصادر قصصاً شتى عن السبيل التي سلكها الحجاج إزاء عبد الملك حتى يصل إلى هذا المنصب، فمن قائل إنه عندما سكت أهل الشام عن إجابة عبد الملك قام الحجاج فقال أنا لها ومن قائل إنه قال لعبد الملك إني رأيت في المنام أني قتلته وسلخته فابعثني إليه وولني قتاله إلى غير ذلك من القصص التي يرويها المؤرخون تأييداً لوجهات النظر التي يتجهون إليها.

وفي اعتقاد بعض المصادر ذكرت أن الحجاج هو الذي رشح نفسه لهذا الأمر فصادف هذا الترشيح هوي في نفس الخليفة لما رآه في الحجاج خلال حملة العراق من حزم وقوة شكيمة وما أبداه من مهارة وإخلاص.

وفي اعتقادنا أيضاً أن الحجاج لم يكن متطفلاً في ترشيح نفسه على هذا الوجه. ذلك أنه كان طموحاً يريد أن يصل إلى قمة المجد فضلاً عن أنه كان يخلص للأمويين إخلاصاً صار مضرب الأمثال فكان يعتقد أنه يخدم الأغراض الأموية ويثبت العرش الأموي بترشيح نفسه لمحاربة الخارجين على هذا العرش.

خرج الحجاج من العراق على رأس جيش لا يزيد على ثلاثة آلاف من المقاتلين فاخترق الصحراء غرباً ولكنه لم يقدم على المدينة بل عرج إلى الطائف فوصل إليها ونزلها دون مقاومة ولعله اختار النزول بالطائف لأسباب جمة أهمها أن الطائف كانت ذات تربة خصبة تكثر فيها الحدائق ويطيب فيها النسيم فرأي الحجاج أن يجعل خاتمة مطاف جيشه في الصحراء أن ينزل الجند بأرض تطيب لهم الإقامة فيها ريثما يتم استعداده لمكة ويقضي بأمره فيها. ولعل الحجاج – وقد أصبح بأرض قومه – كان يعلم أن سراة مكة تربطهم بالطائف مجموعة من الروابط.

ذلك أن كانت لهم بها الحدائق الغناء التي يعتمدون على فاكهتها والمزارع النضرة التي تغذيهم بغلاتها والقصور الصيفية التي يهرعون إليها هرباً من قيظ مكة اللافح فإذا ما انقطعت هذه الأسباب جميعاً عن أهل مكة نقموا على ابن الزبير أن كان موقفه من عبد الملك سبباً في حرمانهم من كل ذلك – ولربما أدي ذلك إلى الخروج عليه وقد حققت الأيام بعد نظر الحجاج في هذا.

والمتصفح لتاريخ الطائف في ذلك الوقت يري أنها كانت مقام محمد ابن الحنفية وغيره من كبار الصحابة وأبناء عمومة الرسول "ص" وأبناء العباس أخرج هؤلاء من مكة على يد عبد الله بن الزبير فلجأوا إلى الطائف خوفاً على أنفسهم بعد أن حاول ابن الزبير إحراقهم لامتناعهم عن البيعة له.

ووجود هؤلاء في الطائف – إذا لم يكن من الأسباب التي دعت الحجاج للوقوف بها – فهو لا شك من الأمور التي رحب بها الحجاج ومما لا شك فيه أيضاً أنه استطاع أن

ينتفع بها في رفع الروح المعنوية في جنوده الذين يوشكون أن يهاجموا بيت الله الحرام.

يضاف إلى كل ذلك أن الحجاج وهو قائد موهوب أراد أن يقف بجيشه على مقربة من مكة بدلاً من أن يهاجمها أو يحاصرها بجيش أضناه السفر عبر صحراء وعرة، ولا يستطيع الحجاج منذ البداية أن يكلف هذا الجيش بأن يهاجم بيت الله الحرام دون أن يكون لذلك مبرر من ناحية ابن الزبير يدفع الجند الحجاج إلى اقتحام المعركة بنفوس مطمئنة وهو في أثناء ذلك يدرس الموقف ويخط طريق الهجوم على ابن الزبير.

فكأنه ربض انتظاراً لتطور الحوادث ومن يدري فمن المحتمل أن يكون قد بث دعاته بين أهل مكة على النظام المعروف اليوم بالطابور الخامس. وسابقة حرب عبد الملك لمصعب بن الزبير في العراق.

على أن هجوم جيش إسلامي على مكة المكرمة وتهديد بيت الله الحرام لم يكن – وخاصة في مثل هذا الوقت – من الأمور الهينة وواجب على من يفكر في مثل هذا الأمر أن يعد له عدته وأن يهيئ النفوس لقبول ما هي مقدمة عليه. وآية ذلك أن الهيثم بن الأسود النخعي قال لعبد الملك بن مروان في مستهل هذه الحملة "مر هذا الغلام الثقفي أن لا يهتك أستار الكعبة ولا ينفر أطيارهم ولكن يأخذ على ابن الزبير بشعاب مكة وفجاجها حتى يهلك فيها جوعاً أو يخرج منها مخلوعاً.

وإذا كان هذا النص يخفض من قيمة الحجاج بان يسميه بالغلام الثقفي مع أنه كان في مستهل العقد الرابع من حياته فإننا لا نستطيع أن ننكر ما ورد به من حكمة سياسية حربية كانت تمليها ظروف مكة ومكانتها الدينية من الجزيرة العربية وإذا كان الحجاج قد اضطرته الظروف على ألا يعمل وفق هذه السياسة فنري في هذا الفصل أنه لم يوجد عنها إلا مضطراً وأن ظروف الحوادث هي التي سارت به في السبيل التي سلكها.

عسكر الحجاج بالطائف وجعل منها مركزاً لقيادته ثم سير منها السرايا الراكبة إلى عرفات حيث كانت تلتقي ببعض رجال ابن الزبير فتصطدم بهم سبراً لغورهم والتماساً لمعرفة مدي قوتهم وكان فرسان الحجاج يعودون إلى الطائف في كل الأحوال غالبين. ولم يفكر ابن الزبير في أن يرسل إلى الطائف بعض طلائع جيشه

ولعل السبب في ذلك أن الطائف كانت واقعة على رأس جبل غزوان فهي بذلك الاعتبار الجغرافي مدينة حصينة لا يدركها مهاجم إلا بصعوبة.

ولما طالت المناوشات بين الفريقين وكانت كفة الحجاج على الدوام هي المراجحة تبين له ضعف خصمه فكتب إلى الخليفة يعمله بذلك وينبئه بماتبينه من أمر ابن الزبير من تفرق بعض أصحابه عنه وفرار الكثير بن من جيشه ويسأله أن يمده بالمال والرجال وأن يأذن له في دخول الحرم للقضاء على ابن الزبير، قبل أن يعمل ابن الزبير فكره ويستجيش ويجمع إليه أنصاره وتؤوب إليه فلاله.

هذا ما أجمعت عليه المصادر عن موقف الحجاج من مهاجمة مكة.

وينفرد صاحب أنساب الأشراف في إحدى روايتيه بأن عبد الملك هو الذي كتب للحجاج بذلك ويعلله بأن الزبير بعد مقتل مصعب كتب إلى أهل العراق يدعوهم إلى طاعته ومعاونته وأن خبر ذلك قد ورد على عبد الملك بن مروان من أخيه بشر بن مروان بالعراق، فكتب عبد الملك إلى الحجاج (أن سر إلى ابن الزبير فانزل معه وأشغله).

كما يعلل موقف عبد الملك هذا من الحجاج بأن الشعراء في بلاط عبد الملك كانوا يحرضونه على قتال ابن الزبير، ومن ذلك قول جواس بن القعطل الكلبي.

إن الخلافة يا أمية لم تكن أبداً تدر لغيركم ثدياها
فخذوا خلافتكم بأمر حازم لا يحلبن الملحدون صراها
سيروا إلى البلد الحرام وشمروا لا تصل حوا وسوا كموا مولاها
لا تتركن منافقين ببلدة إلا أقلتم بالسيوف طلاها

على أننا لا نستطيع أن نجزم أن جواس هذا قال هذه الأبيات في معرض التصريح للحجاج بمهاجمة الحرم، ومقام هذه الأبيات بعد مقتل مصعب بن الزبير بالعراق والأمر بتسيير الحملة على الحجاز لاسيما وأنه لم يرد نص عن المقام الذي قال فيه الشاعر هذه الأبيات.

كانت المدينة قد آلت إلى عبد الملك بن مروان بعد أن كانت في يد ابن الزبير.

ذلك أن عبد الملك أوفد طارق بن عمرو لمحاربة عمال ابن الزبير على

المنطقة الواقعة بين أيلة ووادي القرى، فلما انتصر عليهم وخرج عامل المدينة منها دخلها طارق بينما كان الحجاج مقيماً بالطائف.

فلما أرسل الحجاج إلى عبد الملك يطلب إليه المدد أرسل عبد الملك إلى طارق – وقد صار والياً من قبله على المدينة – في ذي القعدة يأمره أن يلحق بمن معه من الجنود، فسار طارق في خمسة آلاف وأذن للحجاج في الحصار.

وبدراسة الوقع الجغرافي لمكة والمسالك المؤدية إلى غيرها من المدن نستطيع أن نقطع بأن الحجاج جاء إلى مكة عن طريق عرفات فمني ثم نزل إلى أرباض المدينة من شمالها الشرقي بينما جاء جيش طارق من شمال غربي المدينة عن طريق وادي فاطمة.

فإذا حاولنا التوفيق بين المصادر العربية – التي لم تكن تعني بالتوقيعات الجغرافية عناية تذكر – وبين المواقع الجغرافية على ما هي واردة في المصورات القديمة والحديثة ترجح لدينا نزول جيش طارق بجبل قعيقعان في شمال غربي الحرم ونزول جيش الحجاج في شرقي الحرم عند بئر ميمون الواقعة بين المعلاة ومني.

ولما كان هذا المكان يصلح لنزول الجيش دون أن يحقق الغرض الذي قصد إليه الحجاج وهو تهديد عبد الله بن الزبير اللائذ بالحرم فقد استغل الحجاج جبل أبي قبيس لذلك فنصب عليه المنجنيق وأقام عليه بعضا من جيشه.

على أنه لا يجوز لنا أن نتصور انقطاع الصلة بين الجيشين إذ إنهما تحت إمرة قائد واحد وهو الحجاج والمسافة بني منزليهما جد قصيرة.

خرج الحجاج على رأس جيشه من الطائف متجهاً نحو مكة في غرة ذي القعدة من سنة اثنتين وسبعين. ويروي البلاذري والدينوري. أنه قال لأصحابه: تجهزوا للحج بينما تورد بقية المصادر خروج الحجاج إلى مكة دون الإشارة إلى قوله لأصحابه بأن يتجهزوا للحج فهل خرج الحجاج بجيشه بحجة الحج أو الحرب؟؟ وبعبارة أوضح هل عمل الحجاج على إغراء جيشه بالحج أو خرج بهم من الطائف وهم يعلمون أنهم خارجون لحرب ابن الزبير؟؟ فإذا كان قد خرج بهم بقصد الحرب أفما كان الأوفق أن ينتظر حتى ينتهي موسم الحج ثم بعد ذلك يخرج لقتال ابن الزبير؟

والواقع أن الحجاج أنصف بخروجه لابن الزبير في هذا الشهر، ولو فرضنا أن خروجه في هذا الوقت إنما اقتضاه مسير جيش طارق لكان ذلك من حسن حظ الحجاج أيضاً إذ لو ترك ابن الزبير ومكة مليئة بوفود المسلمين من كافة الأقطار التي يحكمها الأمويون لبث دعايته ضد الدولة الأموية بين هؤلاء الوفود ولكانت لهم بعد عودتهم إلى أقطارهم مواقف من الدولة الأموية لا يعلم مداها فمسارعة الحجاج إلى مهاجمة مكة في موسم الحج من طبيعته أن لا يمكن ابن الزبير من بث دعايته بين هؤلاء.

ورب قائل يقول بأن وقفة الحجاج ورغبته في مهاجمة الحرم فيها دعاية صامتة ضد الدولة الأموية التي وجهته لهذه الحرب وفي موسم الحج، ولكن ظاهر الحق في جانب الأمويين ومبلغ نفوذهم في الأقطار المفتوحة وحديث انتصارهم على مصعب بن الزبير بالعراق كان مبعث اعتقاد لدي المسلمين بأنهم أصحاب حق لن يتنازلوا عنه وأنهم جاءوا مكة لمحاربة خارج على الخلافة الأموية معتصم ببيت الله الحرام بغير حق وهو إلى جانب ذلك أضعف من أن يخرج لمحاربة الحجاج خارج الحرم، وأبخل من أن يكفي أصحابه شر العوز وخزائنه مملوءة بالأقوات، والعالم الإسلامي لم ينس بعد موقف ابن الزبير من مجموعة من سادة المسلمين من الصحابة والتابعين وأبناء عمومة الرسول وكيف حاول أن يحرقهم بالنار أولاً ويضطرهم إلى الخروج إلى الطائف ثانياً.

وبينما كان الحجاج قادماً إلى مكة بجيشه - للحج أو للحرب - نراه أرسل فرقة من جيشه نصبت المنجنيق على جبل أبي قبيس فلما جاوز عامة الجيش منى وصار أبو قبيس منها على مرأي رأوا المنجنيق قد نصب فهالهم ذلك.

وفي رأينا أن الحجاج خرج من الطائف وجنوده يعلمون أنهم ذاهبون لحرب ابن الزبير إذ من غير المعقول أن يغري قائد جيشه بالحج بينما هو خارج للقتال لاسيما وأنها خدعة لن تطول فإذا كان مسيرهم إلى مكة يحتاج إلى هذه الخدعة ففيم كان مسيرهم من العراق على ما نذهب - أو من الشام - على ما يذهب البعض الآخر عبر هذه الصحراء المترامية الأطراف؟؟ وهل أغراهم الحجاج حين خروجهم بالحج أم كانوا يعلمون أنهم ذاهبون لحرب ابن الزبير؟ فإذا ثبت الشق

الثاني – وهو ثابت – أصبح الحجاج في غير حاجة إلى إغراء جنوده حين مسيرهم من الطائف بالحج أو بغير الحج.

على أن صاحب البلاذري والدينوري لما آمنا بأن الحجاج أغري جنوده بالحج صاغوا قصة رؤيتهم للمنجنيق على أبي قبيس وذعرهم لذلك ولكنهم لم يرتبوا نتائج لهذا الذعر فلم يحدثونا عن فتنة في جيش الحجاج أو خلاف في الرأي بين الجنود، مما يدل على أن المقدمات التي ساقوها لا تتناسب مع النتائج التي أثبتها التاريخ، مع ما رواه المسعودي من أن أهل دمشق لما بلغهم خبر حصار الحجاج لابن الزبير بمكة والظفر بأبي قبيس كبروا سروراً بذلك النصر. هنا قد يختلف الرواة والمؤرخين في بعض الوقائع والأحداث ولكن كل الروايات والمصادر تدل على أن الحجاج ضرب الكعبة وحاصرها بأمرعبد الملك بن مروان ولا يمكن لعامل لديه أن يتصرف بمثل هذا الحدث الذي استنكر المسلمين في ضرب الكعبة بالمنجنيق ودخول إلى الحرم وسفك الدماء بدون علم ومباركة عبد الملك بن مروان.

وإذا ثبت أن جند الحجاج ذعروا لرؤية المنجنيق فأغلب ظننا لم يدر بخلدهم أن من برنامج الحملة هدم الحرم ونصب المنجنيق قد يدل على ذلك، فإذا ذعروا لنصب المنجنيق كان ذعرهم في محله فهم مذعورون لذلك لا لحرب ابن الزبير.

وتري بعض المصادر بأن المنجنيق نصب على أبي قبيس وقعيقعان، ونحن لا نري باساً من مجاراة هذه المصادر على هذا إذ كان جبل قعيقعان مجاوراً لمنزل جيش طارق، ولا بأس في نظرنا أن ينصب المنجنيق على الحرم من ناحيتين إحداهما شرقية والأخرى غربية والجبلان على مسافة تكاد تكون متساوية من الحرم.

لاسيما وأن نصب المنجنيق على كل من هذين الجبلين يحقق ما ذهبت إليه بعض المصادر من أن الحجاج جعل هدفه الزيادة التي زادها ابن الزبير على الكعبة.

وقد كانت هذه الزيادة من الناحية الشمالية مما يجعل رميها من كل من أبي قبيس وقعيقعان أمراً ميسوراً دون أن تتعرض بقية الكعبة لأحجاز المنجنيق هذا إذا أحكمت الرماية.

على أننا من جهة أخرى لا نحب أن نسلم بأن رماية المنجنيق كانت من الدقة بحيث تصيب جزءاً من بناء محدود وهو الكعبة دون جزء آخر.

ولعل القائلين بأنه قصد الزيادة التي زادها ابن الزبير أرادوا أن يرفعوا عن الحجاج ما اعتقدوه إثماً وهو رمي الكعبة ذاتها بالمنجنيق فالتمسوا له مخرجاً من هذا الإثم المزعوم بأن قالوا إنه رمي الزيادة دون الكعبة نفسها، وسواء أرمي الحجاج الكعبة ذاتها أم الزيادة التي زادها ابن الزبير فقد كان يعمل مضطراً مكرهاً، ذلك أن بعض أعوان ابن الزبير صعد فوق الكعبة وصار يوجه الضربات إلى جيش الحجاج مما اضطره إلى أن يوجه الضربات لهم ولا حيلة له في ذلك، وسنري فيما بعد أن أعيان مكة توسطوا لدي الحجاج طالبين إليه أن يكف عن استعمال المنجنيق فأجابهم (والله إني لكاره لما ترون ولكن ماذا أصنع وقد لجأ هذا إلى البيت)؟؟

كانت وفود الحج قد جاءت إلى مكة من كافة الأقطار الإسلامية وقد منعهم من الطواف حول البيت ما يتعرض له الطائفون من خطر المنجنيق، ولما كان في ذلك تعطيل ل ركن من أركان الحج فقد تدخل في الأمر عبد الله بن عمر فكتب إلى الحجاج يقول له: اتق الله فإنك في شهر حرام وبلد حرام وقد قدمت وفود الله من أقطار الأرض ليؤدوا فريضة الله ويزدادوا خيراً.

ويذهب بعض المؤرخين إلى أن نفور ا لمسلمين من استعمال المنجنيق في موسم الحج كان عاماً وأن جماعة من كبار الصحابة -لا عبد الله بن عمر وحده - ذهبوا بأنفسهم إلى الحجاج وكلموه في أن يترك الضرب بالمنجنيق وأنه قد منع الناس من الطواف. فأرسل الحجاج إلى طارق بن عمرو بأن يكف عن استعماله حتى ينتهي الناس من الحج، وقال لهم: والله إني لكاره لما ترون، ولكن ابن الزبير لجأ إلى البيت.

وأياً ما كان فقد كف عن استعمال المنجنيق حتى انتهي الناس من الطواف.

أما الفريقان المتحاربان فقد كان كل منهما يريد أن يؤدي فريضة الحج، ولكن مناسك الحج كانت مقسمة بينهما ففي يد ابن الزبير الحرم والمسعي وفي يد الحجاج منى وعرفات والجمرات، لذلك نرى أن كلا من الفريقين قد أدي الفريضة غير كاملة - أداها على ما بيده من مناسك - فابن الزبير وأتباعه قد طافوا وسعوا ولم يقفوا بينما أن الحجاج ورجاله وقفوا ولكنهم لم يسعوا ولم يطوفوا.

انتهي موسم الحج، فنادي الحجاج في الناس بالانصراف إلى البلاد وأن القتال سيتسأنف ضد الملحد بن الزبير... وعندما يصف الحجاج بن الزبير بالملحد هل خرج بن الزبير عن الإسلام؟ إنه خرج عن الاعتراف بالدولة الأموية وبحكمها من بني أمية الذين قتلوا الحسين واغتصبوا السلطة. لذلك قاد شورة ضد الأمويين. ولكن وصف الحجاج لأبن الزبير بالملحد هي خروج عن القيم والمبادئ. لأن بن الزبير لم يلحد أو يتراجع عن الإسلام.

ومواقف الحجاج هذه هي محاولة منه لنشر الفتنة بين المسلمين ولا يحق له أن يكفر أحداً. ولكن أساليب الحجاج وخداعه للعامة من الناس لم تمحي الثورة لابن الزبير. بل أستمرت وأن تم قتله و التمثيل في جثته خارج القيم الإسلامية وما آمر به الحجاج بذلك.

وفي يوم من الأيام بينما كان الحجاج يرمي بالمنجنيق أرعدت السماء وأبرقت فأكبر ذلك الشاميون وتوقفوا عن القتال اعتقاداً منهم أن هذا غضب من الله، فأخذ الحجاج الحجارة بيده ووضعها في المنجنيق ورمي بيده أيضاً فرموا، وفي اليوم الثاني جاءت الصواعق مرة جديدة ولكنها كانت أشد عنفاً من سابقتها فقتلت من الشاميين عدداً وقيل إنها أحرقت المنجنيق فضعفت عزيمة الجند وكفوا عن القتال ثقة منهم أن الخالق سبحانه لا يرضي عما يصنعون فقال لهم الحجاج: لا تنكروا هذا فإنا ابن تهامة وهذه صواعقها، وهذا الفتح قد حضر فأبشروا، وسيصيبهم في الغد مثل ما أصابكم، وفي اليوم التالي لمقالته نزلت الصواعق فقتلت من أصحاب الزبير عدداً، فقال الحجاج لجنده: أما قلت لكم إنهم يصابون؟ وأنتم على الطاعة وهم على خلافها.

ونحن لا نري بداً من أن نقف من هذه الحوادث وقفة: هل كانت هذه الصواعق أمراً طبيعياً؟ وهل كان الحجاج صادقاً فيما قال لجنده؟

لقد حدثت هذه الصواعق في منتصف ذي الحجة من عام اثنين وسبعين وهو يوافق أوائل مايو من سنة ٦٩٢ (أي بداية فصل الصيف) وإذا كانت بلاد العرب مشهورة بالجفاف على وجه العموم فمن المعروف أن أمطارها إذا نزلت تكون صيفية، وكان هذا اليوم مطيراً كما يقول البلاذري. ومثل هذه الأمطار

تلازمها الصواعق في كثير من الأحيان، وفي هذا ما يدلنا على أن الحجاج كان محقاً - ولو إلى حد - فيما قاله لأصحابه.

أما قوله إن القوم يصيبهم مثل ما أصابكم ففي تقديرنا أنه أراد أن يرفع الروح المعنوية بين جنده وقد علم أن الصواعق إذا نزلت يوماً كان نزولها بعد ذلك أمراً محتملاً، ولقد كان من حسن حظه أن أصابت صواعق اليوم التالي معسكر ابن الزبير دون معسكره هو، ولم يكن هناك ما يمنع من أن تتكرر هذه المأساة في معسكر الحجاج.

استمر نطاق الحصار مضروباً على ابن الزبير والتراشق بين الطرفين مستمراً. وقد كانت وطأة الحصار شديدة على أهل مكة حيث أحدث مجاعة شديدة حتى بيع مد الذرة بعشرين درهماً، وقد كان من أثر ذلك أن خرج الكثيرون من أهل مكة إلى الحجاج بعد أن بعث إليهم بالأمان الذي أعطاه عبد الملك لهم ولابن الزبير حتى قيل: إنه خرج إليه عشرة آلاف منهم ابنا عبد الله بن الزبير حمزة وخبيب.

كانت المجاعة تأكل أهل مكة بينما خزائن ابن الزبير عامرة بالأقوات والأموال لم يخرج منها من الغلال والذرة والتمر إلا ما يسد الرمق وكان يقول في ذلك: إن أنفس أصحابي قوية ما لم يفن هذا.

وقد كان ابن الزبير يرجو أن يقنع أهل مكة بالكفاف حتى تنجلي غمة الحصار ويخرج من هذه الحرب منتصراً، كما كان يخشى أن فنيت أقواته أن يهرع رجاله إلى معسكر الحجاج، وقد حدث ما كان يخشاه إذ فر هؤلاء إلى معسكر كان فيه الحجاج يغمر الناس بعطاياه وكانت المؤونة فيه موفورة تحمل إليه من الشام والعراق، ولقد بلغ من وفرة الأقوات في معسكر الحجاج أن بعض رجاله كان يبيع الزائد عن حاجته فقد حدث محمد بن عمر عن سعيد بن مسلم بن بانك عن أبيه أنه ابتاع من بعضهم كعكا بدرهم فكفاه هو ومن معه إلى أن بلغوا الجحفة - وكانوا ثلاثة نفر.

ولما كانت المسافة بين مكة والجحفة نحو المائتين والسبعين من الكيلو مترات يقطعها المسافر راكباً فيما لا يقل عن خمسة أيام كان ما اشتراه هؤلاء من بعض جند الحجاج قد كفاهم - وهم ثلاثة - عشر وجبات على الأقل ويدلنا ذلك على وفرة الأقوات لدي جيش الحجاج وفرة يكاد لا يصدقها العقل.

فإذا سلمنا بما يحتمل أن تنطوي عليه هذه القصة من المبالغة فهي دليل – على كل حال – على السير في معسكر الحجاج.

وتبدو أهمية ذلك إذا وازنا بين هذا اليسر وما كان عليه أهل مكة من ضنك في المعيشة وقلة في الأرزاق واستطعنا أن نعلل هروع الآلاف من أهل مكة إلى معسكر الحجاج.

بعد خروج الآلاف من أهل مكة إلى الحجاج لم يبق مع ابن الزبير إلا عدد قليل ما بين متحمس له ومتورط معه، فلما رأي ابن الزبير ذلك جمعهم للتفكير في الموقف فقال ما ترون؟؟ فقال رجل من بني مخزوم: والله لقد قاتلنا معك حتى لا نجد مقيلاً ولئن صبرنا معك ما نزيد على أن نموت وإنما هي إحدي خصلتين: إما أن تأذن لنا فنأخذ الأمان لأنفسنا وإما أن تأذن لنا فنخرج.

وفي هذه المقالة ما يدل على مدي اليأس الذي تسرب إلى قلوب أصحابه وفيه إنذار بأن لا رجاء في القتال.

وقال له رجل آخر اكتب لعبد الملك بن مروان فقال كيف أكتب؟؟ من عبد الله أمير المؤمنين إلى عبد الملك بن مروان فو الله لا يقبل هذا أبداً. أم أكتب لعبد الملك بن مروان أمير المؤمنين من عبد الله بن الزبير؟؟ فو الله لأن تقع الخضراء على الغبراء أحب إلى من ذلك.

وفي هذا الحوار دليل قاطع على أن ابن الزبير كان يأبي أن يسلم على أية صورة. وقال له رجل ثالث: بل نطلب الصلح فقال ابن الزبير: أوحين صلح هذا؟؟ فو الله لو وجدوكم في جوف الكعبة لقتلوكم.

ولقد أجمعت المصادر على أن ابن الزبير كان في حالة عصبية إذ حدث أن حاول أخوه عروة أن يقنعه بالكتابة إلى عبد الملك بن مروان قائلاً "إن الله قد جعل لك أسوة في الحسن بن على إذ خلع نفسه وبايع معاوية" فرفع ابن الزبير رجله فضرب بها عروة حتى ألقاه عن السرير وقد كان جالساً معه عليه.

كانت كل هذه العوامل تتناوب عبد الله بن الزبير فهو حائر ما بين استبساله وخذلان الأكثرية من أنصاره. دخل عبد الله على أمه أسماء بنت أبي بكر وقد بلغت من العمر مائة سنة – فقال: يا أماه قد خذلني الناس حتى

أهلي وولدي ولم يبق معي إلا اليسير ومن ليس معه أكثر من صبر ساعة والقوم يعطونني ما أردت من الدنيا، فما رأيك؟؟ فقالت: أنت والله يا بني أعلم بنفسك فإن كنت تعلم أنك على حق وإليه تدعو فامض له فقد قتل عليه أصحابك، ولا تمكن من رقبتك يتلعب بها غلمان بني امية، وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت أهلكت نفسك ومن قتل معك وإن قلت كنت على حق فلما وهن أصحابي ضعفت فهذا ليس فعل الأحرار، ولا أهل الدين. كم خلودك في الدنيا؟؟ القتل أحسن. فقال يا أماه إني أخاف إن قتلني أهل الشام أن يمثلوا بي ويصلبوني.

فقالت: يا بني إن الشاة لا تتألم بالسلخ، فامض على بصيرتك واستعن بالله.

وبعد حديث طويل تناول يديها ليقبلها، فقالت: هذا وداع فلا تبعد أدن مني حتى أودعك فدنا منها فعانقها وقبلها فوقعت يدها - وكانت عمياء - على الدرع فقالت: ما هذا صنيع من يريد ما تريد، فقال: ما لبسته إلا لأشد متنك فقالت: إنه لا يشد متني، ولكني البس ثيابك مشمرة ففعل وخرج بعد أن أودعها للانضمام إلى أصحابه بالحرم.

بينما كان ذلك يجري في معسكر ابن الزبير إذا بالحجاج يخطب الناس مبيناً لهم ما صارت إليه حال ابن الزبير وما هو فيه، فقويت نفوسهم وقدموا فملأوا ما بين الحجون إلى الأبواء.

ورتب الحجاج جنده فوكل جماعة بكل باب من أبواب الحرم وكان من حسن رأيه أن جعل أهل كل جهة من جهات الشام على باب من أبواب الحرم بذاته حتى لا تحدث فتنة وحتى تتحدد المسئولية، فجعل لأهل الأردن باب الصفا ولأهل فلسطين باب بني جمح ولأهل قنسرين باب بني سهم، وكان الحجاج وطارق من ناحية الأبطح إلى المروة. أراد الحجاج بذلك أن يوزع المسئولية على اقتحام الحرم إلى كل القبائل العربية حتى لا يحتجون عليه وعلى بني أمية باقتحام الكعبة وقتل أتباع بن الزبير داخل الحرم. وبذلك كانت خطوة الحجاج بارعة.

وبينما كان ذلك يجري خارج أبواب الحرم كان ابن الزبير ينصح البقية الباقية من أصحابه ويرتبهم فكان مما قاله لهم "لا يرعكم وقع السيوف فإن

ألم الدواء للجراح أشد من ألم وقعها صونوا سيوفكم كما تصونوا وجوهكم غضوا أبصاركم عن البارقة وليشغل كل امرئ منكم قرنه ولا يسلم سلاحه فإن الرجل إذا سلم سلاحه فهو كالمرأة أعزل ولا تسألوا عني فإني في الرعيل الأول.

ثم بدأ المحاصرون في مهاجمة ابن الزبير داخل الحرم فمرة يحمل في هذه الناحية وأخرى في هذه الناحية كأنه أسد في أجمة يعدو في أثر القوم حتى يخرجهم.

فلما رأي الحجاج أن الناس لا يقدمون على ابن الزبير ترجل وأقبل يسوق الناس حتى لا يتقهقروا.

وفي إحدى الحملات قتل صاحب علم ابن الزبير عند باب بني شيبة وصار العلم بأيدي أصحاب الحجاج فاستشاط ابن الزبير غضباً ثم حمل على جماعة من رجال الحجاج حتى أخرجهم من المسجد وتابعهم حتى بلغ بهم الحجون فرماه رجل بأجره فأصابت وجهه فأرعش لها ودمي وجهه فتعاور عليه رجال الحجاج فقتلوه وقطعوا رأسه.

وكان ذلك في يوم الثلاثاء السابع عشر من جمادي الأولي من سنة ثلاث وسبعين للهجرة.

ولما قتل ابن الزبير كبر أهل الشام فرحاً بقتله وبعث الحجاج برأسه ورأس عبد الله بن صفوان وعمارة بن حزم إلى المدينة فنصبت بها ثم أرسلت إلى عبد الملك ابن مروان.

أما جثته فقد صلبت على الثنية اليمني بالحجون.

وقطع الرؤوس وإرسالها من العوائد المعروفة فلم يأت الحجاج ببدع في هذا - وقد أرسلت أمه إلى الحجاج تستأذنه في تكفينه ودفنه فأبي ووكل بالخشبة من يحرسها وكتب إلى عبد الملك يخبره بصلبه وما كان من أمره، فكتب إليه يلومه ويقول له ألا خليت بينه وبين أمه؟ فأذن لها الحجاج فكفنته وصلي عليه عروة وقيل غيره ودفنه بالحجون.

وبذلك انتهت حركة ابن الزبير التي استمرت زهاء اثنتي عشرة سنة ينافس فيها بني أمية الخلافة حتى كادت تعصف بالدولة الأموية لولا عزيمة مروان بن الحكم وابنه عبد الملك يؤازرهم ويشد عضدهم رجال أقوياء كالحجاج.

وباخماد حركة ابن الزبير أيضاً انتهت آخر محاولة حاولها الحجاز لاستعادة مكانته من أيدي الأمويين إذ انصرف الناس بعدها إلى الناحية العلمية كدراسة القرآن والحديث واكتفوا بهذا عن الكفاح بالسلاح.

أسباب انتصار الحجاج على ابن الزبير: يجدر بنا بعد مقتل عبد الله بن الزبير أن تقف قليلاً لنوازن بينه وبين الحجاج حتى نتعرف الأسباب التي أدت إلى هزيمة ابن الزبير مع وجوده في موطنه ومن حوله الكثير من الناقمين على الأمويين والراغبين في أن يظل الحجاز مركز الخلافة الإسلامية.

وإنا لموجزون الأسباب التي أفضت إلى ذلك فيما يأتي

أولاً: وفرة موارد الحجاج وقلة موارد ابن الزبير: منذ أن خضعت العراق لعبد الملك وابن الزبير محصور بمكة لا يصله من العراق المادة والذخيرة والرجال فارتفعت أثمان الحاجيات حتى بيع مد الذرة بعشرين درهماً بينما كان الحجاج في رغد من العيش فكانت تأتيه العير من دمشق تحمل الكعك والسويق والدقيق بكثرة.

ثانياً: كرم الحجاج وبخل ابن الزبير: كان الحجاج يغمر الناس بعطاياه ويشجعهم بذلك على القتال فنراه يقول لهم "قاتلوا على أعطيات أمير المؤمنين" بينما كان ابن الزبير حريصاً شحيحاً وكان عبد الملك يعرف ذلك منه فقال فيه "إن فيه لثلاث خصال لا يسود بها أبداً عجب قد ملأه، واستغناء برأيه، وبخل التزمه فلا يسود بها أبداً" وقال بعد قتل مصعب "لله در مصعب لو كان لأخيه سخاؤه وله شجاعة أخيه ما طمع فيهما".

ولم يكن البخل طارئاً على ابن الزبير لظروف مكة خلال الحصار بل كان بخيلاً طوال عهده ذكرت لنا بعض المصادر أن مصعباً لما قتل المختار بن أبي عبيد الثقفي وفد على أخيه عبد الله ومعه وجوه أهل العراق فقال "يا أمير المؤمنين جئتك بوجوه أهل العراق لم أدع لهم نظيراً لتعطيهم من مال الله" فقال عبد الله "جئتني بعبيد أهل العراق لأعطيهم من مال الله والله لا فعلت".

أما وقد صارت مكة في حالة حصار يتعذر معها الحصول على الأقوات فقد تابع ابن الزبير سياسة البخل فضن على أصحابه في أحرج الأوقات.

فبينما الناس يتصورون جوعاً في شوارع مكة كانت خزائنه مملوءة بالقمح والشعير والذرة والتمر وكان لا يعطي للجندي سوي نصف صاع من تمر (في اليوم) وكان ابن الزبير يعتقد أنه يستطيع الاطمئنان إلى أصحابه طالما كانت خزائنه عامرة فكان يقول "أنفس أصحابي قوية ما لم يفن ما عندي" وعندما وجد تثاقلاً من أصحابه وقال "أكلتم تمري وعصيتم أمري".

ثالثاً: استمساك ابن الزبير بالبقاء في الحرم: كان من المحتم من الوجهة الحربية أن يخرج ابن الزبير عن مكة ليهاجم الحجاج بعد طول السفر في الطائف أو أن يعترض طريق دخوله مكة أما بقاؤه في مكة عامة وداخل الحرم خاصة فقد كانت سياسة فاشلة من الجهة الحربية فضلاً عن أنه عرض الحرم لسفك الدماء فيه وعرض نفسه وأصحابه لهلاك محقق.

رابعاً: أخطاء ابن الزبير السياسية:

(أ) على أثر مقتل الحسين بن على قام ابن الزبير في مكة خطيباً مبيناً للناس جور بني أمية وقتلهم الحسين ابن بنت رسول الله "ص" فبايعه المسلمون على أن يكون الأمر شوري بعد الفتح. فلما نجحت حركته استبد بالأمر ولم يقتصر على تجاهل بني هاشم بل اضطهدهم وبلغ به العناد أن ترك الصلاة على النبي في خطبته قائلاً: "إن له لأهيل سوء يشرئبون لذكره إذا سمعوا به".

وحينما امتنع ابن الحنفية وابن عباس مع آخرين عن البيعة له لأنه في فتنة حبسهم وعزم على إحراقهم بالنار لولا نجدة المختار بن أبي عبيد الثقفي لهم.

وليس من المستبعد أن يكون الحجاج قد استغل موقف ابن الزبير من بني هاشم إذ كان لا يترك فرصة إلا انتهزها. يدلنا على ذلك أن الحجاج سمع ابن الزبير يقول "ويل أمه فتح لو كان له رجال" فقال "قد كان لك رجال ولكن ضيعتهم".

(ب) كان الحجاج يعرف كيف يستغل الظروف وينتهز الفرص: سمع أن الجراح ابن الحصين بن الحارث الجعفي – الذي كان عامل ابن الزبير على وادي القرى – حدثت مجاعة في عهد ولايته ففرق تمرأ من تمر الصدقة على الناس فلما علم ابن الزبير بذلك غضب وعندما قدم عليه جعل يضربه بدرته ويقول "أكلت تمري وعصيت أمري" فدعا

الحجاج الجراح في حصاره لابن الزبير ودعا وجوه الناس وقال له "حدثني حديث الملحد وحديثك" فحدثه والناس يسمعون فقال الحجاج "أهذا ممن يرجي لخير؟

تبعة مهاجمة الحرم وضرب الكعبة بالمنجنيق: ولقد كان موقف الحجاج من ابن الزبير اللائذ بالحرم وما تلا ذلك من اضطرار الحجاج لمهاجمته وضرب الكعبة بالمنجنيق مثاراً لكثير من النقد لتصرف الحجاج حتى وقتنا هذا.

أما الحجاج ففضلاً عنه كانت له مصلحة سياسية في حرب ابن الزبير فإنه كان يعتقد أعتقاداً راسخاً أنه خارج على الخلافة، يدلنا على ذلك أنه حينما كلمه جماعة من الصحابة في أن يكف المنجنيق حتى ينتهي ا لناس من الطواف قال: "إني والله لكاره لما ترون ولكن ابن الزبير لجأ إلى البيت والبيت لا يمنع خالع طاعة ولا عاصياً ولو أنه اتقي الله وخرج لنا فإما أن يظفر وإما أن نظفر فيستريح الناس من هذا الحصر.

وفضلاً عن اعتقاده الشخصي فإنه كان نائب الخليفة وقائد جيشه فكان لزاماً عليه أن يكون تحت إرادته وهو لم يدخل مكة إلا بعد استشارته وإذنه له في الحصار بل يروي أنه هو الذي أمره بالحصار.

يضاف إلى كل ذلك أن ابن الزبير أثار شعور المسلمين وأفزعهم بهدمه للكعبة وبنائها على أساس إبراهيم عملا بحديث صح عنده سمعه من خالته عائشة وبلغ من فزعهم أن خرجوا هاربين إلى الطائف ومني.

وأما نصب المنجنيق وإصابته للبيت فإن هذا لم يكن عملاً قصده الحجاج، ولم يرد الحط من شأن البيت وإنما كان ما فعله ضرورة من ضرورات الحرب نظراً لتحصن ابن الزبير به ورغبة الحجاج في إخراجه منه.

إن ضرب الحجاج الكعبة بالمنجنيق سوف تظل علامة بارزة في حياته. ولا يوجد تبربر لذلك أو ضرورة من ضرورات الحرب. بل هو عمل يدل على استمانته بالكعبة وعدم احترامها واحترام مشاعر المسلمين. لذلك كان غضب المسلمين لليوم عليه وشبه بأبرشة.

وليس أدل على أن الحجاج لم يرد إهانة الكعبة من أنه جعل هدفه الزيادة التي زادها ابن الزبير وأنه أمر بكنسه وتنظيفه من الحجارة والدم بعد مقتل ابن الزبير.

كلمة عمر بن عبد العزيز

ولما مات الحجاج دخل الناس على الوليد يعزونه ويثنون على الحجاج خيراً، وعنده عمر بن عبد العزيز الصالح التقي، فالتفت إليه الوليد ليقول فيه ما بقوله الناس فقال عمر:

- يا أمير المؤمنين فهل كان الحجاج إلا رجلاً منا؟...

فرضيها منه.

هذه هي حياة ومسيرة الحجاج بن يوسف الثقفي الذي اختلف عليه كل الروايات ولكن تبقي الحقيقة كما وصفها المؤرخون.

obeikandl.com